

أعلام الواقعية النقدية:

١- بلزك (١٧٩٩-١٨٥٠):

ولد (انورية بلزك) في مدينة تور الفرنسية في عائلة فلاحية دخل الحقوق ومارس العمل في المحاماة ولكن ذلك لم يمنعه من حضور المحاضرات الأدبية التي كانت تلقى في السوربون.

عانى بلزك في معظم حياته من أزمت مادية وسياسية فقد كانت حالته المادية سيئة وكانت صلته برجال الصحافة أسوأ ما لقيه في حياته فشله في دخول البرلمان وفي دخول الأكاديمية الفرنسية.

وفي سنة ١٨٣٢ بدأت قصته العاطفية الطويلة مع فتاة بولونية نبيلة ولم يتزوجها إلا قبل وفاته بسنتين.

إن أعظم ما يشار إليه بالنسبة لبلزك هو عمله العظيم (الكوميديا الإنسانية) وهي مجموعة قصصية تتألف من نحو ١٥٠ قصة كتبت بين سنتي (١٨٢٩-١٨٤٦) وقد قسمها على ثلاثة أقسام رئيسية اطلق على كل قسم منها اسم (دراسة) وضمن كل قسم مجموعة من اللوحات تضم الواحدة منها عدداً من الروايات أما المحاور الثلاثة لهذه الروايات فهي: محور الطباع ومحور الدراسات الفلسفية ومحور الدراسات التحليلية.

وقد كتب بلزك رواياته هذه في فترة سيادة المجتمع البورجوازي الذي تسلط على حكم فرنسا بعد الثورة وفيها يظهر اتجاهه الواقعي النقدي وفي هذه الروايات قدم بلزك أعظم صورته التاريخية التي تعكس حياة الأمة الفرنسية بكل فئاتها وتطلعاتها بما يجعلها سجلاً فنياً تاريخياً واجتماعياً وفكرياً واقتصادياً وسياسياً خالداً.

وعلى الرغم من ملبه إلى الملكية ومن أنصار البوربونيين إلا أنه كان شديد الولاء للجمهورية الفرنسية.

وقد وضعه فكتور هوجو في مصاف اقوى الكتاب الثوريين.

إن الأبطال في روايات بلزاك يتصفون بالثمن المادي ويصور أبطاله هؤلاء على أنهم مجرمون ويساوي بلزاك بين المرابين والممولين والتجار والمقاولين وأصحاب المصانع وغيرها في اقترافيهم جريمة الإثراء على حساب غيرهم وربط ذلك الثراء بموت الضمائر وإزهاق الأرواح.

وقد أراد الكاتب في هذا التصوير الحكم على العصر بأنه عصر الأفاقين والمجرمين ومصاصي دماء شعوبهم وقال بأن الثراء هو سمة ذلك العصر وفي تحليله للنماذج السيئة توصل إلى أن تلك النماذج البشرية عاجزة عن تحقيق الحب العميق الصادق وكذلك عاجزة عن إرغام الفن على المساومة معها وعرض بلزاك نماذج للشباب المتسلقين الذين يسعون للثراء بهدر كرامتهم وضياع إنسانيتهم وأنهى مصيرهم بالنهاية المحترمة المأساوية.

وقد اظهر الكاتب أن طريق النجاح محفوف بمساومات الضمير وبالسقطات الأخلاقية كما اظهر الآثار السلبية التي تنتهي إليها الأنانية والمنفعة والتي تمزق الأواصر المتينة للأسرة.

(إن روايات بلزاك تحتل مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ الأدب الواقعي العالمي إذا يجمع منهجه الروائي (بين إنسانية عصر النهضة وأفكار عصر التنوير ورومانسية الرواية التاريخية لوالتر سكوت أما اهم ما يميز رواياته فهو العرض الأكثر دقة للعصر).

إن التاريخ الأدبي قل أن عرض كاتباً عمق من بلزاك إدراكاً لمشكلات مجتمعه و أخلاقه عصر واكبر قدرة على إتقان عمل فني يتسع لكل فئات مجتمعه وهو لم يوفق في عمله إلى هذا الحد الا بتحري الحق والتزام الصدق في تصوير الواقع دون أي تأثير بمعتقداته الخاصة.

إن تصوير بلزك الفني الصادق للمجتمع البورجوازي نموذج فريد في بابه لكتابة الواقعية.

ولقد شرح احد النقاد الفرق بين واقعية بلزك ومثالية الكتاب الرومانسيين فقال (اعتاد كتاب القصة أن يختاروا من حياه البطالة الخالية من وسواس المال موضوعات لقصصهم المكتفية بمشاكل القلب وحدة وكانت مطالبهم الاجتماعية هي إلا تكون لهم مطالب لقد كانوا مصطنعين منفصلين عن الحياة وظهر بلزك فتبددت القصة المصطنعة والحفلات الماجنة التي يميز فيها كل ماجن خليع وكل متسكع عاطل وتكشفت الحياة على حقيقتها بما فيها من طبقات ومن أصحاب بنوك ووكلاء أعمال متجولين وموظفين وسكان قصور وعسكريين وشرطة ومحتالين وغانيات وسيدات راقيات تبددت المشاعر الرقيقة أمام فواجع المال والأطماع ولم يعد بلزك يحلل المشاعر ذاتها ولكنه حرص على ربطها بالأحوال الاقتصادية واخذ يصور لنا الحياة الإنسانية من جانبها الجوي القاسي المتولد من الاعيب المصالح المادية المتضاربة بدا يضع الفرد في موضعه الاجتماعي ويدرس مشاكله المتولدة من ذلك الواقع لقد صور الواقع المحيط به على حقيقته ووجه الاتهامات القاتلة إلى الرأسمالية الاستغلالية ولم يكتف بلزك بتصور حياة مجتمعه ولكنه حاول أن يكشف قوانينه.

واهم ما في قصصه أن أبطالها أحياء يعرفهم الناس ويصادفونهم في كل مكان ولقد درسهم في ظل نظرية (تين) القائمة على الجنس والبيئة والعصر ولقد تميز بلزك في رواياته تلك بدقة الملاحظة وخصوبة الخيال.

ومما وجه إليه من نقد هو إطنابه في بعض تفصيلات الأحداث واستعماله لتعبيرات ثقيلة ومبالغته في تصوير بعض الأمور ولكن هذا لم

يغض من قيمة الكاتب ولم يضعف من قيمة عمله العظيم بل ظل هو
وصاحبه فوق هامات مجد الرواية الواقعية شهد له بها حتى خصومه.

٢- ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠)

أعظم كتاب القصة الواقعية الإنكليز في العهد الفيكتوري ولد في أسرة فقيرة واضطره الفقر إلى العمل وهو صغير لمساعدة أسرته وكان لفقره اثر بالغ في مؤلفاته لم يكمل دراسته الجامعية لكن الحياة أمدته بتجارب واسعة اطلعته على حقيقة الناس وصورهم المتناقضة في المجتمع كما أكسبته الخبرة أسفاره إلى أمريكا وإيطاليا وسويسرا وفرنسا إلا انه قضى معظم سني حياته بالقرب من لندن في بيت ريفي يحضر فيه الأهل والأصدقاء وتوفي فيها بعد أن ترك خمسة عشر رواية طويلة وعددا من القصص القصيرة والمسرحيات و الأبحاث.

يمتاز ديكنز بحس نقدي جاد يظهر في مؤلفاته الأولى مثل (مذكرات بيكوبك) وتتعلق رواية (نيكولاس نيكابي) إلى طريق النقد أو التجريح لتحل محل الفكاهة التي طبعت بها الرواية السابقة.

لكن أعظم رواياته هي (ديفيد كوبر فيلد) التي تأثر بها تأثرا شديدا شاعرنا الوجداني إبراهيم ناجي ولقد تحدث فيها ديكنز عن حياة بطله منذ صغره حتى بلوغه مجده الأدبي وفي هذه الرواية التي هي أشبه بالسير الذاتية نقف أمام عواطف رقيقة ومشاعر جميلة يصف بها لوحات طفولته.

غير إن شهرة ديكنز بدأت برواياته الاجتماعية الكبيرة التي يتناول فيها نواحي الحياة الاجتماعية المتشعبة و افضلها رواية (البيت البارد) ١٨٣٥ التي تدور أحداثها حول قضية قضائية طويلة تعبر عن تقاهة الإنسان أمام قوانين النظام الرأسمالي وعالج ديكنز الرواية التاريخية و اشهرها (قصة مدينيتين) وفيها يرسم لوحات فنية للندن وباريس خلال الثورة الفرنسية ويعرض للفوضى التي أصابت عاصمة الفرنسيين وتأثرت بها عاصمة الإنكليز.

وفي هذه الرواية نجد ديكنز ناقما على الثورة حتى استتبت بإنسانية البشر وعجزت عن تقديم حياة مقبولة للناس وفيها يهاجم ظلم الإقطاعيين في فرنسا لكنه يرتعب من الفوضى التي انحرفت إليها الثورة الفرنسية بعد ذلك.

وتتسم رواياته الأخيرة بغياب الرؤية الاجتماعية منها لتحل محلها الرواية القائمة على الموضوعات البوليسية التي تتصل بموضوع الجريمة وعلى العموم تعكس روايات ديكنز صورة عصره الذي يدين به النظام الرأسمالي وفيها يوجه الكاتب الكبير اتهاماته للشخصيات التي تقبض على دست الحكم وتتحكم بمصير الناس.

غير أن نقطة الضعف التي توجه إلى رواياته هو فشله في خلق البطل الإيجابي الذي يحسم الموقف لصالح الشعب لقد كان هذا البطل في رواياته ضعيفا مفتعلا غير أن ذلك لم يضعف من قيمتها ومن تحليلها لواقع مجتمعه كما لم يقلل من قيمة موقفة الفكري وفلسفته الناضجة التي تبدو في تحليله لمشاكل عصره.

٣- دستوفسكي:

احد اكبر عمالقة الكتاب الروس الذين كانت أعمالهم الروائية تمهد للواقعية الاشتراكية والتي يعد مكسيم غوركي رائدها الكبير وقد رفعت رواياته الكبيرة شهرته إلى الآفاق وخاصة منها (الجريمة والعقاب) و(الأخوة كارامازوف) و(الابله) و(المراهق) و(الأبالسة) وترتبط هذه الروايات بالأهداف السياسية التي حققت فيها الوحدة العضوية مع أنها في الأساس قضايا نفسية وخلقية وفلسفية وهي تعكس تناقضات الواقع في اخطر مرحلة من مراحل التاريخ الروسي وتبدو هذه التناقضات في اهتزاز القيم وتغير المقاييس الاجتماعية وتطور العلاقات بين القوى الاجتماعية.

وقد جسّد دستوفسكي الأحاسيس الإنسانية التي تمثلت في عذاب المجتمع الروسي وتناقضاته مع الواقع السياسي والذي يبدو في الإذلال الذي تعرضت له القوى الاجتماعية الفاعلة من السلطة.

وتطفح أعمال دستوفسكي بالعواطف الإنسانية التي تمثلت في عذاب المجتمع الروسي وتناقضاته مع الواقع السياسي والذي يبدو في الإذلال الذي تعرضت له القوى الاجتماعية الفاعلة من السلطة وتصفح أعمال دستوفسكي بالعواطف الإنسانية الحارة والمشاعر الصادقة التي يجسدها أبطال رواياته في تحليله النفسي لها ذلك التحليل الذي اظهر تناقض أبطاله بين متمردين ومستسلمين.

لقد استطاع دستوفسكي أن يتحرى نفسيات أبطاله ويصور وعيهم الباطني المتفتح وان يكشف عن تناقضاتهم في سلوكهم البشري واطهر ان (فرض الحرية الشخصية الجامحة قادر على أن يجر وراءه تصرفات معادية للإنسانية وان الهدف السامي يمكن أن يساء له بالوسائط الخسيسة التي يتوصل بها إليه).

وأبطال دستوفسكي عادة من القتلة ولكن الجريمة لديه ليست من النوع الذي نقرأ عنه في القصص البوليسية والمجرم عنده هو إنسان مفكر واسع الثقافة انتهج سلوكا في الحياة عن كامل وعي وكانت الجريمة تطبيقاً نهائياً لسلوكه، ومن الأخطاء التي ارتكبها دستوفسكي (خلطه بين الجريمة والثورة فمؤلفاته تصور عادة مجتمعا رهيباً وأوضاعاً يستحيل الخلاص منها بغير الثورة لكن الكاتب يحذر من هذه الثورة ويرى فيها جريمة كبرى تقتربها جماعة من المغامرين ولهذا كانت مؤلفاته الأخيرة تحمل مضمونا فلسفيا عميقاً.